

## الباب الرابع

سوريا وفينيقيا وفلسطين

٢٥٠٠ ق . م - ٩٧٥ ق . م

تمهيد تاريخي :

تظهر أهمية البلاد السورية كمرکز له دور في تاريخ الفنون في منطقة الشرق الأوسط في فترة العصور التاريخية ، وقد ساعد على ذلك موقعها الجغرافي في قلب المنطقة وامتداد أراضيها إلى حدود البلاد التي كانت مركزاً للحضارتين العظيمتين اللتين ظهرتتا في وادي النيل في الجزء الغربي ، وفي بلاد النهرين في الناحية الشرقية . وقد سببت الأحداث السياسية التي مرت بمنطقة الشرق الأوسط اتصال سوريا بصفة دائمة بهاتين الحضارتين مما سبب استمرار تعرضها للتأثيرات الحضارية المصرية من جهة ، والسومرية البابلية من جهة أخرى . وبحكم وجودها في تقاطع الطرق في منطقة الشرق الأوسط ، امتزجت فيها الأجناس والقبائل المختلفة منذ أوائل العصور التاريخية حيث كانت الأراضي السورية خلال تاريخها الطويل معرضة باستمرار لهجرة القبائل الرحل المتجولة في البادية طمعاً في حياة الرخاء التي توفرها تلك الأراضي السورية .

ويعتبر « العموريون » أهم القبائل السامية التي نزحت من البادية في حوالي سنة ٢٥٠٠ ق . م واستقروا في السهول الشمالية لسوريا وأسسوا دولة في منطقة الفرات الوسطى وجعلوا عاصمتها مدينة « ماري » الواقعة جنوب مصب نهر « الخابور » . وأخذ العموريون ينتشرون في سوريا الوسطى ولبنان وجنوب فلسطين وأصبحت سوريا القديمة تقريباً سامية باستثناء بعض المناطق الشمالية التي كان الحوريون يسكنونها .

تزايد عدد السكان الساميين الذين يسكنون الجنوب بهجرة سكان البادية

المستمرة ونتج عن إحدى هذه الهجرات التي لا يعرف تاريخها تماماً ظهور الكنعانيين الذين احتلوا السهل الساحلى لسوريا وكونوا المدن الساحلية وأطلق عليهم اليونان الذين تاجروا معهم فى حوالى سنة ١٢٠٠ ق.م اسم « الفينيقيين »<sup>(١)</sup> وشملت منطقة نفوذ الكنعانيين فلسطين والجزء الساحلى لسوريا . وتكونت منهم جماعات تسكن المدن الساحلية على طول الشاطئ وأهمها « طرابلس » و « بيلوس » - حالياً ( جبيل ) - و « بيريتوس » - حالياً « بيروت » - و « صيدا » و « صور » أما فى الجنوب فانتشرت أغلب المدن بالداخل وأشهرها « مجدو » و « ششم » و « أورشليم » ، ولم يتحد الكنعانيون تحت حكم واحد ، بل توزعوا فى تجمعات بهذه المدن المختلفة تحت حكم محلى :

اتجه الحوريون الذين كانوا مستقرين فى الجزء الشمالى من بلاد النهرين إلى شمال سوريا فى أواخر القرن الثامن عشر وكان هذا الجزء يسكنه العموريون من قبل ولم ينتظم الحوريون تحت سلطان حكومة مركزية بل كانوا يختلطون مع السكان العموريين « و » الكنعانيين « و » الساميين وكانت لهم أكثرية فى بعض المدن الشمالية مثل « ياما خاض » ، « ألالاك » ، « حلب » ، « كركوك » . وفى القرنين الرابع عشر والثالث عشر خرجت من شبه الجزيرة جماعات أخرى من الشعوب السامية، واستقروا على حدود البادية السورية، ولما لاحت لهم الفرصة المناسبة تسللت منهم قبائل صوب الشمال إلى بلاد النهرين وتسربت مجموعات أخرى صوب الشرق واستقرت فى سوريا وسميت هذه القبائل « الأراميين » ، وبعد أن استقرت لهم الأمور اتجهوا إلى المناطق الأخرى التى كانت تسكنها القبائل المختلفة فى بلاد الشام . وأدى ضغط الأراميين المتواصل إلى طغيانهم التدريجى على المناطق التى يسكنها العموريون والحوريون والحيثيون فى وادى « العاصى » و « المنطقة الشمالية » . وإلى تفهقر هذه الأجناس أو امتصاصها .

( ١ ) أطلق الإغريق على سكان المنطقة الساحلية اسم فونكس « Phoenix » أى أحمر اللون ومن هنا عرف اسم فينيق . وذلك لمهارتهم فى صناعة الصبغة الأرجوانية التى يستخرجونها من أنواع خاصة من الحيوانات البحرية .

بينما تركوا للكنعانيين المدن الشمالية من الجزء الساحلى ، وتركوا للعبرانيين الجزء الجنوبى .

وقد كون الأراميون فى سنة ١٢٠٠ ق . م إمارات عديدة ذات حكم محلى أهمها وأقواها مدينة دمشق القديمة وكان لموقع المدينة المتوسط بين حضارة بلاد النهرين والحضارات الفينيقية والعبرانية أكبر الأثر فى جعلها مركزاً للقبائل التجارية التى تحمل البضائع من البحر المتوسط إلى الشرق وبالعكس . فاشتغلوا بالتجارة مما ساعد على ثرائهم وازدهار الحضارة فى مدنهم وظهور نفوذهم السياسى فى منطقة الشرق الأوسط . ولكن هذا النفوذ ضعف بنمو القوة الآشورية التى تمكنت فى سنة ٧٣٢ ق . م . من القضاء على الدولة الآرامية .

كان الموقع الجغرافى لسوريا الذى جعلها همزة الوصل بين الحضارتين العظيمتين اللتين ظهرتتا فى مصر وسومر سبباً فى تأثرها بالتيارات الثقافية والفنية السائدة فى هذه الحضارات وكان الجزء المجاور لبلاد النهرين متأثراً بالحضارة والفنون السومرية ، بينما تأثر الجزء الغربى بالفنون المصرية . فكانت مدينة « مارى » التى أنشأها العموريون فى وقت معاصر لحكم الأسرة السومرية الأولى مركزاً مهماً للحضارة والفنون السومرية ، كما كانت اللغة المستعملة هى اللغة الأكادية . وتشير الآثار التى عثر عليها فى هذه المدينة التى قضى «حامورابى» على آخر ملوكها فى سنة ١٧٠٠ ق . م إلى قوة تأثير الطابع السومرى . لذلك فضلت دراستها ومقارنتها بالآثار السومرية عند الكلام عن الفن السومرى .

أما الفن الحورى فيصعب فصله عن الفن الحيثى للميزات المشتركة بين هذين الفنين . كما أن المدن «الآرامية» التى ذكر أن بها قصوراً فخمة محصنة ، لم تتم للأسف عمليات التنقيب فيها والكشف عنها كلها حتى يمكن معرفة طابعها ، وكل ما عثر عليه المنقبون هو بعض تماثيل للملوك الآراميين يتضح من دراستها طابع الفنين الحيثى والآشورى .

يبقى بعد ذلك الجزء الساحلى من المنطقة الذى عرف قديماً ببلاد كنعان ثم سماه الإغريق فى الألف الثانى قبل الميلاد «فينيقيا» ويطلق عليه حالياً لبنان .

كانت صلة مصر بسوريا وثيقة لاحتياج الملوك المصريين للأخشاب السورية التى استخدموها فى بناء المعابد والقصور وفى صناعة السفن والتوابيت والأثاث الفاخر ، وترجع صلة المصريين بالمدن الساحلية لسوريا إلى ما قبل قدوم الفينيقيين إلى لأراضى السورية فى أوائل الألف الثالث.م حيث عثر فى مدينة «بيبلوس Byblos» على أوان حجرية مغطاة بأغطية ذهبية منقوشة بأختام الملوك المصريين منذ العهد الطينى ومن ذلك العصر تظهر أيضاً آثار سورية يغلب عليها طابع الفن المصرى فى «تانايش» القريبة من «مجدو» .

وبسبب ظهور صناعة المعادن فى «بيبلوس» منذ ذلك التاريخ المبكر يعتقد بعض العلماء أنه كانت هناك آثار معدنية فى تلك المنطقة تعاصر الآثار التى وجدت فى بلاد الأناضول فى مدينتى «الأكاھويوك» «وטר وادة» وأن زلزالاً دمر المنطقة وأزال حضارتها وآثارها، بينما يفسر البعض الآخر سبب ندرة الآثار بأن المنطقة دمرت من كثرة غارات جيرانها عليها حيث كان المصريون والحيتيون يتصارعون على سوريا ولم ينج من ذلك إلا المدن الساحلية .

### العمارة :

بالرغم من عدم العثور على آثار مدن فينيقية تذكر . يتضح من النقوش الموجودة على جدران القصور الآشورية التى تصور معاركهم مع الفينيقيين أنهم قد برعوا فى تشييد المدن المحصنة ذات الأبراج العالية التى يتضح فيها طابع فنون بلاد النهرين . كما تعلموا منهم طريقة بناء القباب والعقود حيث عثر فى «مجدو» على عقد يحمل جداراً سميكاً . وقد اهتم الملوك والنبلاء بتشيد القصور واستخدموا الحجارة فى بنائها كما استخدموها فى مقابرهم (شكل ١٦٩) التى شيدها تحت القصور الملكية فى مدينة «أغاريت» .

ويشبه الطابع المعماري لهذه القصور طابع القصور الملكية الموجودة في جزيرة كريت ، مما حمل العلماء على الظن بأن الأهلالي الذين كانوا يسكنون المدن الساحلية قبل قدوم الفينيقيين قد ساهموا في بنائها قبل أن يهاجروا إلى الجزر الإغريقية ، ومما يثبت مهارة الفينيقيين في تشييد القصور الفخمة ما ذكر من استعانة الملك « سليمان » بعمال « حيرام » ملك « طيرة » في تشييد قصره وزخرفته ، ويرجع تاريخ تلك القصة إلى القرن العاشر قبل الميلاد .

عبد الفينيقيون مظاهر الطبيعة : السماء وما يتبعها من ظاهرات كالظمر والريح والبرق والرعد ، وأطلقوا على المعبود الذي يمثل تلك المظاهر الطبيعية الإله « بعل » ورمزوا له بنصب من قطع الحجر المرتفعة . كما عبدوا الأرض التي تمنح الحياة والخصوبة ورمزوا لها بامرأة وأطلقوا عليها اسم « عشتار » ، وشيدوا لهذه الآلهة المعابد . وكان المعبد في أول الأمر يقتصر على حجرة واحدة لها باب واحد ، ولكنهم طوروا بناءه فتعددت الحجرات ، وجعل المذبح في وسط القاعة الكبرى حيث تقدم القرابين للآلهة .

وقد عثر على آثار لهذا النوع من المعابد في « بيبيلوس » ووجدت به قطع حجرية عالية تشبه المسلات (شكل ١٧٠) ، ويرجع تاريخ بنائه إلى سنة ١٩٠٠ ق.م. كما عثر على معبد الإله « بعل » في مدينة « أغاريت » وقد شيد في القرن الرابع عشر ق.م. ولا تدل عمارة هذه المعابد على تقدم في فن العمار .

#### النحت :

بالرغم من صلة أهل « أغاريت » و« بيبيلوس » بالمصريين ورؤيتهم للتماثيل المصرية الجميلة ، إلا أنهم لم يهتموا بعمل تماثيل حجرية واكتفوا بصنع تماثيل صغيرة معدنية للآلهة . حيث عثر في معبد مدينة بيبيلوس على تماثيل صغيرة برونزية وضعت في أوان مدفونة تحت أرضية المعبد يرجع تاريخ صنعها إلى سنة ١٩٠٠ ق.م. ويمثل أحد هذه التماثيل الإله « بعل » واقفاً في وضع يبدو عليه الحركة (شكل ١٧١) وترتفع إحدى يديه إلى الأمام ومن الجائز أنه

( شكل ١٦٩ ) مقبرة متخذه مسيحة بالحجارة عمر عليها في مدينة  
أوغاريت ويرجع تاريخها إلى القرن الرابع عشر ق . م



( شكل ١٧٠ ) معبد مدينة بيبيلوس « جيل » وتظهر به قطع من  
الحجارة الضويلة . الألف الثاني ق . م



( شكل ١٧١ ) تمثال الإله بعل  
من البرنز المغطى بطبقة ذهبية .  
ويرجع تاريخه إلى ١٩٠٠ ق . م  
« متحف بيروت »

كان يمسك رُحماً . ولا يستر جسده المغطى بطبقة ذهبية زى خاص . وتبدو الرأس صغيرة بالنسبة للجسم لكن الفنان اعتنى بإظهار تقاطيع الوجه بدقة . وقد اهتم بدراسة الجسم من الناحية الأمامية فقط . ومع أن صناعة هذا التمثال كانت بيد فينيقية إلا أنه قد تأثر بفنون البلاد الأخرى ، فغطاء الرأس المدب منقول عن غطاء رأس الآلهة الحورية . والوضع الواقف والنسب وأسلوب نحت الجسم مستمد من الفن المصرى

ويقل هذا التأثير المصرى فى الجزء الشمالى من البلاد الفينيقية البعيدة عن مصر ويتضح هذا فى تمثالين صغيرين لرجل وامرأة من الفضة (شكل ١٧٢) عثر عليهما فى مدينة « أغاريت » فى مكان قريب من معبد الإله « بعل » ويرجع تاريخ صنعهما إلى الفترة ما بين سنة ٢٠٠٠ ق . م . وسنة ١٨٠٠ ق . م ، ويلاحظ أن تمثال الأنثى أصغر حجماً من تمثال الرجل وربما كانا يمثلان الإله « بعل » وزوجته « عشتار » . كما يغطى الجزء الأسفل لجسم الرجل زى يتكون من رقائق من الذهب . وتدل صناعة هذين التمثالين على فن بدائى لا دراية فيه للفنان بتكوين الجسم البشرى . حيث يظهر تمثال الإله بجسد طويل رفيع ذى أكتاف عريضة كما تتميز رأسا التمثالين بعدم استدارتهما وتسطيحهما من الخلف . ولقد عثر على آثار مماثلة لهذا النوع من التماثيل فى فلسطين فى « غزة » و « مجيدو » و « أريحا » مما يدل على انتشار القبائل الأولى فى منطقة كبيرة قبل هجرتهم إلى الجزر الإغريقية .

وأهمية آثار هذه الفترة تبرز فى ظهور المصنوعات البرونزية حيث عثر على دبوس من البرونز ، وأساور من الذهب والفضة والبرونز وأقراط وخلاخيل من الفضة من صنع القبائل التى سكنت أغاريت حوالى عام ٢٠٠٠ ق . م . كما عثر فى مدينة « أغاريت » على تمثال من البرنز للإله بعل واقفاً (شكل ١٧٣) يرجع تاريخ صنعه إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، وبدراسة هذا التمثال الذى يختلف كلية عن التمثالين السابقين يتأكد وجود الحوريين فى المنطقة . ويتضح ذلك من غطاء الرأس المخروطى وأسلوب نحت الجسم المسطح . ويتضح من الأمثلة السابقة أن الفينيقيين كان لهم ميل كبير للصناعات المعدنية .

(شكل ١٧٢) تمثالان من الفضة  
يتمتع أحدهما بثلاث الإله بل  
وزوجته «عشتار» ويفضي جسد  
الرجل زي من الذهب - القرن ١٩  
ق. م ارتفاع تمثال الرجل ٢٨ سم  
- «متحف دمشق»



١٧٢

(شكل ١٧٣) تمثال الإله بل  
واقف مصنوع من البرنز عثر عليه  
في مدينة «أوغاريت» ويتشابه وضعه  
الواقف مع تمثال بيبيلوس . تاريخه  
حوالي ١٤٠٠ ق. م «متحف حلب»



١٧٣

(شكل ١٧٤) لوحة حجرية بها نقش يصور  
الإله بل واقفاً على أسد عثر عليها في «مراوتس»  
القرن التاسع ق . م



(شكل ١٧٥) لوحة حجرية عثر عليها في تل  
«بارسب» ويظهر فيها الإله «تشت» واقفاً على  
حيوانه الخاص . أوائل الألف الأول ق . م .  
- «متحف حلب»



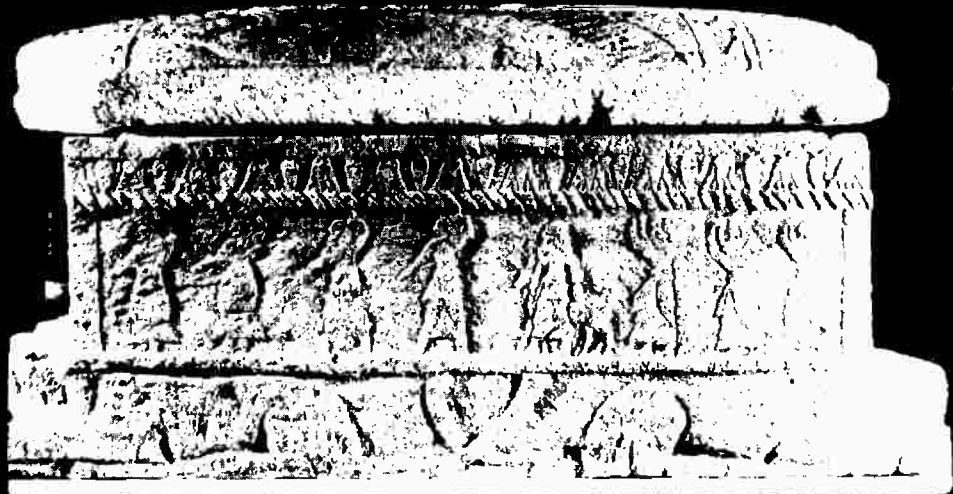
## النقوش البارزة :

اقتصرت فن النحت البارز على بعض اللوحات الحجرية المنقوشة وبدراستها يتضح أن الفينيين قد أتقنوا هذا النوع من الفنون . ومثال ذلك اللوحة الحجرية التي عثر عليها خارج حدود الدولة في مدينة « ماراتوس » وبسطحها نقوش تمثل الإله « بعل » ( شكل ١٧٤ ) . وبدراستها تتضح براعة المثال في إبراز معالم زى الإله . ويتبين من هذه اللوحة الجمع بين التأثيرين المصرى في وقفة الإله والحيثى في وقفته على الحيوان . ويمكن مشاهدة هذه الوحدة مرة أخرى في لوحة حجرية عثر عليها في شمال سوريا في تل بارسب ( شكل ١٧٥ ) .

ومن أحسن الأمثلة التي تشهد بريق الأسلوب الفنى للنقوش البارزة . تابوت الملك « حيرام » ( شكل ١٧٦ ) الذى عثر عليه في مدينة « بيبيلوس » Byblos ، ويرجع تاريخه إلى عام ٩٧٥ ق . م وتسجل النقوش في إفريز على الجدران فترى على أحد السطحين صفًا من المتعبدين يتقدمون ناحية الملك الموجود في الجهة المقابلة جالسًا على عرش قوائمه على هيئة أبى الهول المنحج . ويتقدم هذا الصف من الخدم والمتعبدين نحو منضدة فوقها طعام ، والجزء الأعلى من هذا الإفريز مزخرف بوحدات من نبات اللوتس . كما يوجد في أسفل التابوت نقش لأربعة أسود تبرز رهوسها من السطح الجانبي للتابوت ، ومع أن الأشخاص المنقوشين في الإطار يرتدون الزى الفينيقي إلا أن الأسلوب الفنى يغلب عليه الطابع المصرى . كما تذكرنا رهوس الأسود البارزة من سطح اللوحة الحجرية بالطابع الحيثى .

## الفنون التطبيقية :

ظهرت أهمية مدينة « بيبيلوس » كمرکز لصناعة المعادن في حوالى سنة ١٩٠٠ ق . م ويبدو في آثارها استخدام المعادن بكثرة في صناعة الأسلحة على اختلاف أنواعها في معبد مدينة « بيبيلوس » عثر على خنجر ذهبي ( شكل ١٧٧ ) منقوش



١٧٦



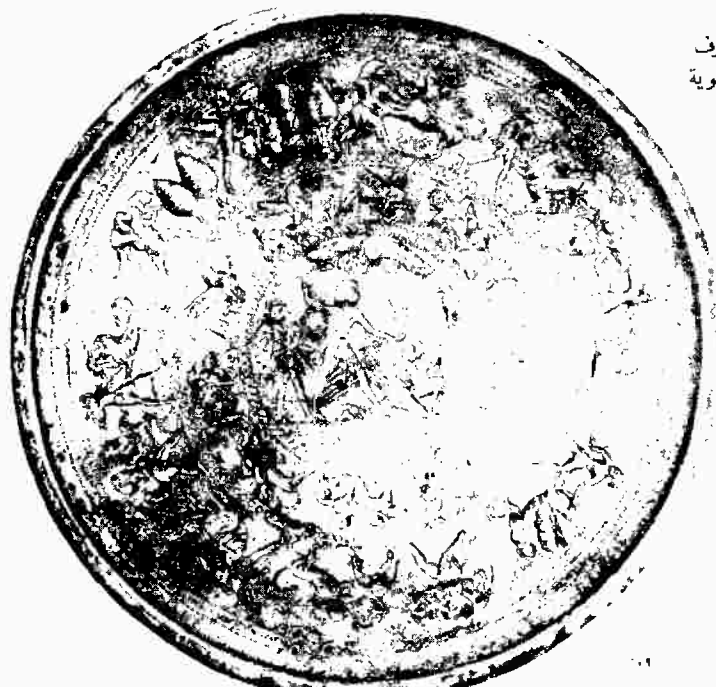
١٧٧

(شكل ١٧٦) تابوت الملك « حيرام » ملك  
ببيلوس ، مصنوع من الحجر ويرجع تاريخه إلى  
القرن العاشر ق . م - « المتحف الأهلي ببيروت »

(شكل ١٧٧) خنجر من الذهب وبه نقوش  
مستمدة من وحدات حورية ومصرية وسومرية  
القرن ١٨ ق . م - « متحف بيروت »

(شكل ١٧٨) بلطة ذهبية وتظهر بها مهارة  
الفينيقين - « المتحف الأهلي ببيروت »

(شكل ١٧٩) طبق من الفضة مزخرف  
بنقوش مستمدة من وحدات مصرية وآسيوية  
من مدينة « إيدليون » بحزيرة قبرص .



١٨٨

بمجموعة من الوحدات الحورية والمصرية والسومرية منسقة بأسلوب « فينيقي » وبدل النقش الدقيق فوق السطح الضيق على مقدرة فنية وصناعة ممتازة . وبالرغم من ميل الفنان الفينيقي إلى الوحدات الأجنبية إلا أننا نشاهد أنه تمكن في بعض الحالات من صناعة أسلحة ذات نماذج خاصة به ، مثال ذلك البلطة الذهبية الموجودة بالمتحف الأهلى ببيروت ( شكل ١٧٨ )

ولقد استخدم الذهب والفضة على نطاق واسع في الصناعات الفينيقية ، فصنعوا منها أنواعاً فاخرة من أواني الطعام لتصديرها إلى البلاد المجاورة حيث عثر على كثير من هذه المصنوعات خارج حدود الدولة . في قصور المصريين والآشوريين وفي قبرص وبلاد اليونان ، لذلك كان طابع الزخارف المنقوشة على هذه المصنوعات المعدنية خليطاً من العناصر المصرية والحورية والآشورية ، ويغلب على أكثرها الطابع المصري ، وأحسن مثال لذلك طبق فضي عثر عليه في قبرص تظهر فيه الوحدات المصرية والآشورية ( شكل ١٧٩ ) .

ولأن الفينيقيين تجار بالفطرة نجد أنهم لم يتأثروا بالفن للفن ذاته ، بل وجهوا عنايتهم لإتقان صناعة يتمكنون من تصديرها إلى البلاد المجاورة . وهذا كان متوفراً في صناعة المشغولات العاجية التي اشتهرت بها « أغاريت » في القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، كما عثر على مصنوعات عاجية كثيرة بمدينة « مجيدو » يرجع تاريخ صنعها إلى هذه الفترة . ومن أحسن التحف العاجية التي تشهد بمقدرة الفينيقي في هذه الناحية القطعة التي عثر عليها في مدينة « البيضاء » - ميناء مدينة « أغاريت » - . وبها نقش لإلهة يقف بجانبها جديان من الماعز ( شكل ١٨٠ ) ويرجع تاريخ صنعها إلى القرن الثاني عشر .

وتدل مجموعة الآثار العاجية التي عثر عليها في خارج حدود المدن الفينيقية في « سماريا » و « أرسلان تاش » وفي المدن الآشورية والتي يرجع تاريخها إلى القرن التاسع قبل الميلاد على براعة الفينيقيين في اقتباس أحسن الطرز من البلاد المجاورة لنقشها على العاج . ويظن بعض علماء الآثار أن مجموعة هذه الأعمال العاجية التي ظهرت خارج البلاد يمكن نسبة صناعة جزء منها إلى



(شكل ١٨٠) قطعة عاجية  
نقش لإلهة تتوسط زوجاً من  
الأمم الماعز . كانت غطاء  
الهيكل . عثر عليها في مدينة  
المنيا

١٨٠



( شكل ١٨١ ) قطعة عاجية  
بها نقش يصور الإلهة المصرية  
إيزيس تقف بجوار شجرة الحياة  
القرن الثامن ق . م



( شكل ١٨٢ ) تمثال من العاج  
على شكل امرأة تحمل بين يديها  
شيئاً ما

١٨١

السوريين الآراميين الذين لم يتأثروا بالوحدات الأجنبية . فنسبوا إلى الفينيقيين الآثار التي تظهر فيها وحدات مصرية ، أو وحدات أسيوية مع وحدات مصرية ( شكل ١٨١ ) . وإلى السوريون القطع الحالية من التأثير المصري كالعلب والأمشاط والتماثيل العاجية ( شكل ١٨٢ ) .

وقد استمر ظهور الوحدات المصرية في الفن الفينيقي حتى القرن العاشر قبل الميلاد ، فنجدهم قد استخدموا وحدات أزهار اللوتس والبردى وقرص الشمس المنح. والآلهة المصرية . . . إلخ ، ثم ابتداء ظهور العناصر الآشورية جنباً إلى جنب مع وحدات الفن المصري بعد أن ظهرت قوة الدولة الآشورية . وبالرغم من افتقار الفينيقيين إلى طابع خاص بهم يميزهم في أعمالهم الفنية ، إلا أننا لا ننكر فضلهم على تاريخ الفن ، حيث كانت بلادهم منذ القرن الرابع عشر سوقاً عالمية للمصنوعات المصرية والحورية والحيشية والإغريقية ، ونقلوا وحدات كثيرة من بعض هذه البلاد إلى البلاد الأخرى مما نتج عنه ربط بين فنون الشرق الأوسط القديم . كما نقل الفينيقيون فنون الشرق الأوسط إلى بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط . ويتجلى أكبر فضل لهم على الحضارة الغربية في حروف الكتابة الفينيقية التي اقتبس منها الإغريق والرومان حروفهم الهجائية . كما أخذ عرب الشمال حروفهم الأبجدية من الآراميين